حول فشل مشروع بيروبيجان ، ارى أن أورد نصا للاستاذ ناجي علوش ورد في كتابه « الماركسية والمسألة اليهودية » . يقول : ان فشل تجربة بيروبيجان يعود الى سبب رئيسي واحد وهو ان المشروع كان يستهدف انشاء منطقة ذات حكم ذاتي يهودية « اشتراكية » في ظل الدولة السوفياتية، وان قسما كبيرا من اليهود وعلى رأسهم كهنتهم ووجاهاتهم ، يناصب الحكومة السوفياتية العداء، لانها أرادت ان تجعل منهم أمميين اشتراكيين وان تجردهم من « يهوديتهم المتحجرة » المتمثلة في طبيعة تكوينهم الاجتماعي والثقافي . « كان اليهودي يريد ان يظل يهوديا على طريقته وكانت الدولة تريد ان تجعل منه مواطنا عاديا . كانت تريد ان تتمثله ، حتى عندما كانت توافق على خلق منطقة يهودية ذات حكم ذاتي . ولم يكن اليهودي يريد ان يصبح مواطنا سوفياتيا ولا ان يكون له حكم ذاتي سوفياتي . ولهذا رفض المشروع الذي اقترحه وعمل من اجل تحقيقه رفاقه اليهود الشيوعيون الذين كانوا على قلتهم اكثر استعدادا من اليهودي العادي للخروج من قوقعة اليهودي التقليدي » . ويرفض الكاتب هذا التعليل لان « اليهودي الذي رفض الذهاب الى بيروبيجان كان يعلم انه سيبقى في منطقة اخرى من الاتحاد السوفياتي وسيظل في ظل نظام اشتراكي سوفياتي . بل انه كان في هذه الحالة اكثر عرضة للاندماج او التمثل فيما اذا عاش كأقلية بين شعوب ذات اعداد عظيمة . ولو كان لليهود الخيار بين مغادرة الاتحاد السوفياتي او الذهاب الى بيروبيجان لصح ذلك الرأي . ولكن طالما لم يكن لهم مناص من العيش في ظل نظام سوفياتي اشتراكي ، فقد كان من الافضل لهم ، اذا هم أرادوا الحفاظ على يهوديتهم ، ان يتكتلوا في منطقة واحدة يكونون أكثرية فيها » .

ان ما يذهب اليه الاستاذ صفوة صحيح.فتحجر اليهود وانغلاقهم يرجع الى أسباب اجتماعية اهمها الاضطهاد الذي تعرضوا له ابان الحكم القيصري . اما وقد قام النظام الاشتراكي الجديد في روسيا برفع كل القيود المفروضة على اليهود وحاول حل مشكلتهم اسوة بباقي القوميات والشعوب المضطهدة في روسيا ، فقد فترت حماستهم للهجرة والتوطن في مكان اخر لان العنصر الدافع للهجرة ، وهو عنصر الاضطهاد قد انتهى بمجيء النظام الجديد . ولو كان الامر ترسيخ تحجرهم لكان ذلك ممكنا في منطقة واحدة يتجمعون فيها ، اكثر مما هو ممكن لو انتشروا في عدة مدن .

ان عدم حماسهم للذهاب الى بيروبيجان يعود الى الظروف الاجتماعية والتاريخية لليهود . لقد احترفوا المهن ولم يعملوا في الزراعة . فضلوا العمل « بادمغتهم وأناملهم اكثر من عضلاتهم » . ظروفهم المادية الاقتصادية والاجتماعية كانت تتعارض مع نوعية الاعمال التي كان من المفترض أن يقوموا فيها في بيروبيجان . المقاطعة اراض زراعية واليهود لم يتعودوا هذه الاعمال . وقد حلل الزعيم السوفياتي الراحل نيكيتا خروتشيف الدوافع التي جعلت اليهود يحجمون عن الهجرة الى بيروبيجان . وهو يؤكد الرأي الذي يعتبر ان ذلك يعود الى أسباب مادية اجتماعية وليست « لطبيعة التحجر » الكامنة في اليهود ، قال خروتشيف :

« ان التوطين في بيروبيجان كان فاشلا . انهم يذهبون اليها متحمسين ثم يغادرونها واحد بعد آخر . كيف يمكن تفسير هذه الظاهرة ؟ في رأيي انها الى الظروف التاريخية ، فاليهود منذ أقدم الازمنة فضلوا الحرف : فهم خياطون وقاطعو زجاج ومجوهرات انهم تجار ، وصيادلة ونجارون . ولكن خذ حرفة البناء او الصناعات المعدنية فانك لن تجد فيها يهوديا واحدا » .

من هنا ، اذا كان اليهود لم يتعودوا الزراعة والاعمال الشاقة ، فلماذا نجحت الحركة الصهيونية حيث فشل الاتحاد السوفياتي ؟ بكلمة اخرى ، اذا كانت بروبيجان ارض زراعية وقد قدمت الحكومة السوفياتية كل التسهيلات لتوطين اليهود ولم تنجح التجربة للاسباب الانفة الذكر ، فلماذا نجحت الحركة الصهيونية في اجتذاب اليهود الى فلسطين ، مع العلم ان فلسطين ارض زراعية وتحتاج للعمل الشاق في الزراعة والصناعة والبناء ؟

ان الاجابة على هذا السؤال معقدة وتدخل في صميم الفكر الصهيوني . ولكن دون الوقوع في التبسيط والسهولة ، يمكن القول ان الاضطهاد النازي قد شكل عنصر « استقطاب » لليهود للهجرة الى اسرائيل . بالاضافة الى ان زعماء الحركة الصهيونية قد وعوا اهمية الزراعة والارض كعامل من عوامل « تثبيت » اقدام المجتمع القومي اليهودي في فلسطين . فمن دراسة تجارب اليهود